

الجمعية الخلدونية

﴿ درس عام ﴾

﴿ لفضيلة الاستاذ الاكبر مولانا الشيخ محمد تبهده ﴾

﴿ مفتي الديار المصرية ﴾

(قام به يوم الاحد في ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٠٣)

﴿ طبع بمطبعة الراشد التونسي ﴾



﴿ ١٣٢١ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

✽ العلم والتعليم ✽

✽ درس عام ✽

في موضوع ما يصح ان يفهم من لفظ العلم وطرق
الاشتغال به وفائدته بالعمل

قام به حضرة العلامة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده
مفتي الديار المصرية بقاعة التدريس بالجمعية الخلدونية يوم الاحد
في ٢٠ سبتمبر ١٩٠٣ بمحضر جم غفير من العلماء والفضلاء والادباء
وطلبة العلم وهذا نصه بالحرف الواحد
✽ فاتحة ✽

اعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين
اياك نعبد وياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين
انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين
اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين
(مقدمة وتمهيد)

ان بعض اخواننا الذين عرفناهم في تونس قد طلبوا
من الفقير مسامحة او محاورة وربما كان ذلك اصطلاحا عندهم

ثم قالوا درسا فسألني بعضهم عن ذلك فقلت نعم هو درس
ولكن لا تظنوا انه درس في تحقيق مسألة علمية فان عندكم
من جلة العلماء من نعترف بفضلهم فمن اراد تحقيق مسألة علمية
فليراجعهم اما الفقير فاني رجل سايح قصدت هذه الديار
للتعرف ببعض المسلمين والنظر في احوالهم وامور دينهم
من حيث العلم والتعليم ولذلك لما اجبت طلبهم في اقراء الدرس
ما قصدت اقراء درس حقيقي ولكن التكلم فيما يحتاج بفكري
من امر التعليم والعلم والاعراب عما في ضميري مما اتمناه
لاخواننا المسلمين من التقدم في العلم . وقد رايت في بلاد
الاسلام التي تسوحت بها عدة اناس يشتغلون بالعلم ولكني
وجدت عند الاغلب اشتباها في ما هو العلم الذي ينفق الوقت
في تحصيله . هذا فيما يخص الامر المهم الذي اكرره لكم
ولا زلت اكرره من اهمية التعليم حتى يتتبع ذلك التكرار
ما نتمناه من التقدم ما دام الناس في حاجة الى التكرار

وبعد ذلك هناك مسألة مشتركة بيننا وبينكم عامة في
سائر بلاد الاسلام وهي الرضاء بالموجود وهو مما له تعلق
ايضا بالتعليم . فاذا ذكرت نقصا او عيبا في طريقة او في حالة
من الاحوال قيل لك ماذا نضع ونحن اناس متوكلون على
الله وهذا مراد الله من عباده . وهو عذر المقصر عند تقصيره

في بلاد الاسلام وعون على ما نراه من النقص في طرق
تحصيل العلم . ولذلك اردت ضمه لمبحث التعليم
(معنى العلم)

اما من الكلام في معنى العلم فليس الغرض منه الخوض في
ما اصطلح عليه علماء السلف الصالح او غيرهم من المتكلمين
او الفلاسفة او غيرهم ان شئت من الزنادقة . لان هذه الفاظ
اصطلاحية طالما شغلت اهل العلم . مع ان واضعيها انما حددوها
حتى تنضبط المعاني ويسهل تناولها والوصول اليها . ولكن
يصح ان يقال فينا وفيهم انهم ارادوا خيرا فاستعملنا شرا .
ولذلك اترك الالفاظ الاصطلاحية واتكلم في معنى العلم من
حيث هو معروف في الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح
وعلى لسان العامة والخاصة

العلم جاء ذكره في قوله تعالى هل يستوي الذين يعلمون
والذين لا يعلمون الاية وهو استفهام انكاري معناه انه لا
يستوي عالم وجاهل . ثم قال هل تستوي الظلمات والنور اي
ان الظلمة لا تساوي النور فبين لنا تعالى ان الظلمة مثال لحال
من لا يعلم وان النور مثال لحال من يعلم . فتبين من ذلك ان عدم العلم
يشبه الظلمة ونحن نعلم ما يكون من الانسان اذا اشتد به الظلام
وهو سائر في طريق يقصد غاية معلومة فان الظلام يعمي عليه
الطريق وربما سلك طريقا يبعده عن مقصده . وقد يصادف

مهواة فيسقط فيها فتدركه هلكته قبل الوصول الى غايته
وهذه حال الجاهل بوسائل اي غاية من الغايات التي
يعرض للانسان قصدها في حياته فكل من طلب غاية في حياته
بدون علم لا يصل اليها . وحينئذ فيؤخذ من هذه الاية الكريمة
ان الله تعالى بين لنا ان العلم الانسان كالنور لا بمعنى ان العلم
سراج او مصباح وانما ذلك مثل لحال من يعلم الطريق الموصلة
له الى مطلبه والوسائل المودية اليه . فان حاله يشبه من يمشي
وبين يديه نور يبين له السبيل ويكشف له ما فيه من الموانع
فيتجنبها او يذلها حتى ينتهي الى غايته ظافرا بعافيته وسلامته .
لان الايات والاعلام المنصوبة لا يراها المغمور بالظلام وانما
يراه المبصر بالضياء والنور . ولما كان العلم ضوء يهدي الى الخير
في الاعتماد والعمل كان اول ما نزل على انبي الامي الذي لا
يقرا ولا يكتب قوله تعالى اقرا باسم ربك الذي خلق خلق
الانسان من علق الاية . فافتتح الله الوحي بتعليم القراءة والقراءة
تلم . وجاء في الحديث الشريف في اول مرة « ما انا بقاري »
ولا يزان الملك به حتى قرا الايات . ثم بعد ان امر تعالى بالقراءة
من لا يقرا عادة وبين له ان الذي يامر به بالقراءة هو الذي
خلق الخلق كله وهو قادر على ان يقرئه بعد ان لم يكن قارئاً
وانه الذي خلق الانسان الحي الناطق المفصح عما في نفسه
من علق اي دم منجمد لا عقل فيه ولا نطق فهو قادر

على ان ينشي فيه القراءة والعلم وان لم يسبق له تعلم
 بعد ان ذكر هذا قال « اقرا وربك الاكرم الذي علم
 بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » نخص من العلم العلم بالقلم والكتابة
 تنويرها بشأن التحرير والبيان وتنبيهها على عظم فائدته وهو انما
 يكون بعلم اللسان والبراعة فيه . لا نريد من العلم تصور
 القواعد وانما نريد منه ملكة الافصاح والبيان وهو امر بدوي
 اذ لولا الكتابة لما وصلنا الى درجة من الدرجات التي نراها .
 فافتتاح الله تعالى الوحي بطلب العلم والثناء عليه سبحانه بانه هو
 الذي علمه ووهبه الانسان ارشاد الى فضل العلم وحث على
 تحصيله خصوصا العلم بالقلم

وعليه فالعلم ما يبصر الانسان في الغاية التي يطلبها ويهديه
 الى الحق الذي هو معقد النجاة قال تعالى ومن اياته خلق السماوات
 والارض واختلاف السنتكم والوانكم ان في ذلك لاية للعلمين
 ولم يقل للجاهلين او المغفلين فاذا كان للعلم بالقلم هذه المزية
 فلا يصح ان يكون العلم الممثل له بالنور الا علم ارشاد وتبيين .
 ثم جاء في الاحاديث والادعية الماثورة قوله صلى الله عليه
 وسلم « اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علما »
 كانه يقول اللهم اجعل علمي علما صحيحا ينطبق على ما بينته
 في كتابك . ويروى انه قال « اذا مر علي يوم ولم ازدد فيه
 علما فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم » ثم اننا نجد في الآثار

واقوال العلماء وغير ذلك ما يطول ذكره كما تجدون في ما يدور
على السنة الناس عند ذكر العلم ما يرشد الى انهم لا يفهمون من
العلم معنى التبصر في اي امر من الامور والاتيان به على الوجه
الاكمل بقدر الاستطاعة الا ذوا البصيرة . فتحصل من ذلك
اذا ان معنى العلم الحقيقي الذي اثنى الله عليه وميز به المهتمين
من الضالين هو الكشف عن الامر الحقيقي بحيث اذا ميلك
عنه مميل فلا يقدر على ذلك كمن عرف طريقا موصلة لغاية
فلا يعدل عنها مهما حاوله مضله . فلا يكون العلم حقيقيا ولا
تنبعث النفس لتحصيله الا اذا كان كذلك بالنسبة للغاية المطلوبة
منه . وحيث فاذا وجدنا من العلم ما يوصلنا الى البصيرة بما
نقصد من الغاية في مدة وجيزة كيومين مثلا وراينا ما سمي
علما ولكنه انما يوصلنا في مدة اطول كاربعة ايام مثلا كان لنا
ان نعد الاول علما حقيقيا لانه ارشدنا الى اقرب طريق مودية
الى الغاية وان نعد الثاني غير علم لانه عاقنا عنها واوجد لنا
العثار فيها فالمدول اليه سقوط في الضلة

واولى بان يسمى ضلة علم يقصد بتحصيله غاية ثم هو لا يودي
الى تلك الغاية بالمرّة بعد اتفاق الزمن الطويل في تحصيله .
فتسميته علما من الخطا الذي لا يتفق مع ما جاء في الايات
الكريمة والاحاديث الشريفة واستعمال الخاصة والعامة .
ولكن من الناس من يقول لك العلم يطلق باطلاقات ثلاثة .

الادراك والقواعد والمملكة . فتحصيل القواعد وان لم تحضر
 المملكة يسمى علما على الحقيقة فاشتغالنا بتحصيله اشتغال بتحصيل
 العلم . غير ان هذا القائل لم يراع ماذا قصد المسمى للقواعد
 علما . فانه لم يضع لها هذا الاسم الا لانها توصل الى الغاية
 في رايه . فاذا استعملت لغير الغاية فقدت معناها وعدت من
 الشواغل عن العلم المطلوب . فان شاء سمي هذه الشواغل
 جهلا لانها اضلت عن العلم وان شاء فليسهما علما كما يهوى
 لا كما يعرف الناس

(العلوم الاسلاميه)

ومن هنا يمكنني ان تخلص للكلام على حالتنا في تحصيل
 العلم في جميع بلاد الاسلام وهو موضوعنا فنقول
 عندنا علوم شتى نشغل بتحصيلها ونسبها العلوم الاسلامية
 وانما سميت بهذا الاسم لان موضوعاتها لها علاقة بدين
 الاسلام كالفقه واصوله وهو علم يبحث فيه عن طرق استنباط
 الاحكام من ادلتها وكعلم التوحيد وهو علم اسلامي يبحث فيه على
 وجوده تعالى وصفاته الكمالية . ثم العلوم النقلية كالتفسير
 والحديث واللغة والنحو والمعاني والبيان والبديع وما سمي
 علم الوضع

ولهذه العلوم وسائل وكلها نشغل بها وسائل كانت ام مقاصد .
 ولا حاجة لي للكلام على طرق الاشتغال بها . فانا عالم بما عندنا

وانتم بما عندكم وهو امر معروف . انما الكلام في الاستعمال
المعروف عند عامة الناس . فالنحو يدرس بتونس بكتبه كالقطر
والاشمونى والصبان

(علم النحو وتدرسه)

للنحو غايتان . الاولى التمكن من فهم كتاب الله وكلام
نبيه عليه الصلاة والسلام وكلام سلف الامة . والثانية اصلاح
اللسان من الخطا . نشغل بعلم هذه القواعد في هذه الكتب ثم
نشغل انفسنا بالبحث في عبارة المؤلف . هل تدل على ما
قصده . فقائل يقول نعم . ويأتي قائل آخر يقول لا . وقائل
ثالث يرجح قول نعم ورابع يرجح قول لا وهكذا مما ترونه
في التقارير المكتوبة على الحواشي ويطول الزمان وتضيع
الفائدة وينصرف الذهن عن القاعدة . ثم بعد الفراغ من العلم
لا يجد الطالب تقويما في لسانه ولا صحة في تحريره ولا قدرة
على فهم ما جاء في كلام العرب او في كتاب الله وكلام نبيه
صلى الله عليه وسلم . ويزيد الامر صعوبة اذا اعتبرنا طريقة
الابتداء في تدريس النحو فان الاستاذ يبادي الطالب وهو لا
يعلم شيئا من اصطلاحات العلم بتحقيق المسائل وتفتيتها كما
يقولون كانه عريق في العلم ولا يراعى مقدار استعداده للفهم .
وقد وقع لي اني مكثت سنة ونصف سنة لا افهم شيئا من شرح
الكفراوى على الاجرومية فحملني عدم الفهم على مهاجرة

طالب العلم لم يكن الياس من نفسي ولا يكن لامر اراده الله
 قهرني والذي على الرجوع الى الطالب فهربت في الطريق
 ولاكنني صادفت في مهربي من علمني كيف اطلب العلم من
 اقرب وجوهه . فذقت لذته واستمررت في طلبه . فعلى الاستاذ
 ان يكون بيده ميزان وزن به ذهن الطالب ودرجة استعداد
 لقبول ما يقول . فيجب على المدرس ان يتنازل مع المبتدي الى
 درجته ثم يرتقي به شيئاً فشيئاً حتى يصل الى الدرجة التي يتمكن
 منها من ادراك دقيق المعاني . وهذا الفن فن معرفة درجات
 الالذهان وكيفية الاستفادة فن مخصوص تستلزم قراءته ست
 عشرة سنة اذا كان شرح المطول يحتاج في قراءته الى ثمان سنين .
 ومن انفق اوقاته في هذا الفن الذي انفق فيه الا يكتب فاني
 اضمن له ثوبه تملأ اضعاف اضعاف ثواب من يختم اقراء
 المطول لما انه يرشدنا الى الغاية التي طلبنا الله بها

﴿ علم المعاني والبيان ﴾

(والغاية منه)

علم المعاني والبيان وهو ما كتب فيه متن التخليص مثلاً
 ويعرف بعلم البلاغة هو علم يبحث فيه عن البلاغة وهي مطابقة
 الكلام لمقتضى الحال . فما هو ذلك المقتضى نجد الناظر في هذا
 الفن او المعلم له يقول هل تحقق البلاغة بمطابقة الكلام لمقتضى
 الحال في الجملة ام لا بد من مراعاة جميع مقتضيات الاحوال فان

كان الاول فكيف يعد بليغا من لم براع الحال كما ينبغي وهو يعلم انه غير مراعاة له وان كان الثاني لا تختلف طبقات البلاغة ولا يكون لها اعلى واسفل ويطول البحث ويكثر الجدال في ذلك وينصرف الذهن عن البلاغة نفسها ولا يجد الباحث ما يرده اليها . وهكذا نجد البحث يطول في التغالب لحد يشغل الذهن عن الغرض المقصود . مع انه لو قال الاستاذ البلاغة صفة في الكلام تبلغ المتكلم مراده من نفس السامع على قدر طاقته ثم انها تكون بمراعاة حال المخاطب وذلك يقسم الى قسمين ما يتعلق بفهم الكلام وما يتعلق بالمعنى الذي سيق له الكلام فما يتعلق بنظم الكلام هو موضوع علم المعاني ثم ينطلق في بيان ذلك وتقرير المعاني التي سماها الامام عبد التادر الجرجاني واضع هذا الفن معاني النحو . اما القسم الثاني وهو حال المخاطب بالنسبة الى المعنى الذي سيق له الكلام فتوقف معرفته على امور كثيرة ومعارف جمة يتوصل بها الى معرفة طبائع الاشخاص ومداخل المعاني الى قلوبها فمن اراد ان يقنع مخاطبه بعقيدة مثلا فعليه ان ينظر فان كان المخاطب ممن لا يقنع الا بالبرهان فعليه ان يقيمه له وان كان ممن لا يدرك البرهان ولا كنهه يقنع بالمساومات مثلا سلك له تلك السبيل ولا يكون بليغا الا اذا لاحظ ذلك مع ما يتعلق بالنظم . فلو سلك لاستاذ هذا المسلك لجمع المعاني الكثيرة الى

ذهن الطالب ووجه نفسه الى الغاية المطلوبة منها . ثم انه بعد ذلك كله لا يعد معلما للبلاغة الا اذا وجه فكر الطالب الى ممارسة كلام العرب ونسج في التحرير والتعبير على ما نسجوا عليه حتى تحصل له ملكة البلاغة ويصل الى الغاية من علمه . فان غاية هذا العلم تشمل كلا امرين . الاول ان يكون الطالب محصلا فصيحاً بليغاً فيما يكتب او يخطب والثاني ان يقيس بلاغة البلغاء لبلاغة القراءان فيدرك حقيقة الاعجاز . وهذا الامر الثاني هو في الحقيقة ثمرة الامر الاول . فان من لم يكن بليغاً بالملكة والعمل لا يمكنه ان يميز بين طبقات البلاغة اهل طرق تعليمه

سئل الاصمعي اي الرجلين اشعر امسلم ابن الوليد ام ابو نواس فحكم لابي نواس . فتيل له ان اخاك ابا عبيد يحكم لمسلم بانه اشعر فقال ان ابا عبيد يروي الشعر والسكره لم يكابد مشقة العمل في صناعته فليس اهلاً للحكم . وهذا قول حق . فان من لم يدق لم يعرف . واما ما يظن من انه يمكن للطالب بعد معرفته اصطلاحات علم المعاني ان ينظر في كتب التفسير كالكشف مثلاً ويعرف ما يقول الكشاف في وجوه بلاغة الآية وبذلك يكون ممن عرف بلاغة القراءان واعجازه فليس من كلام المحصلين لانه لو كفى ذلك لما كانت حاجة الى صرف الزمان الطويل في تحصيل علم المعاني . ولا كن لنا ان نقول ان القراءان

معجز لان صاحب الكشف قال انه معجز وندفع بزماننا في
 تحصيل ما هو انفع وذلك مما لا يعقل . ورب قائل ان المتكلم
 يقول ذلك من قبيل من يامر غيره بالبر ولا ياتمر به فقد عرض
 بنفسه جزافا بالقاء خطبة على اناس لا يدري اخلاقهم ولا يدري
 ما يقولون بعده ولا يعرف مواضع الخطاب من انفسهم .
 فالجواب نعم لم اقف على هذه الامور تفصيلا ولكن مدة
 اقامتي بهذه الحاضرة كانت مدة اجتماع بافاضلها واعلماءها
 وبذلك حصت لي خبرة اجمالية فخطر ببالي ان اتقى جملة فيما
 يطابق مقتضى الحال . وفي ظني ان ما اقوله ان لم يقع موقعا
 حسنا من نفوس جميع السامعين فلا اقل من ان يستحسنه
 بعضهم وذلك يكفيني في مطابقته لمقتضى الحال

اختلط علينا الامر بالنظر في المماني الامطاحية وكثرة
 البحث فيها وانقلب الغرض منها الى مصاب نزل بنا في علومنا
 وعقولنا فانصرفنا بها عما طالب منها . ولهذا يلزمنا ان نأخذ
 ماخذنا في العلوم يسهل تحصيلها ويسرها على الطالب . وفي ظني
 انه اذا هذبت طارق التعلم لطالب علم البلاغة مثلا ان يبلغ
 الغاية منه في ثلاث سنين . وكذلك من اراد بلوغ الغاية من
 النحو لا يحتاج الى اكثر من ذلك بحيث يصدر الطالب بعد
 هذا فصيحجا بليغا مميزا بين طبقات البلاغة شاعرا بمعنى اعجاز

القرآن قادرا على فهم ما جاء في كلام الساف والانتفاع به فيما
يصالح معاشه ومعهاده

وبالجملة فالغاية من هذه العلوم العربية ان يبلغ المرء بالتعلم
مبلغا كان عليه العربي بالسليقة وهذا يحصل بما قدمناه

ومما يلزم التنبيه اليه في التعليم انه من حق الانسان ان
يفتح للطالب باب النظر بنفسه في العلوم فيبين له القاعدة
مثلا ثم يطالبه بما يراه في انطباقها على جزئياتها في العمل فانه
اذا عوده على ان يقول له كل شئ وان يقوده في كل امر وقف
ذهنه عند حد الاتباع وصعب عليه ان يحقق امرا بنفسه فعليه
ان يطالبه بالعمل دائما ويعلمه طريقة معرفة الخطا والرجوع
الى الصواب . وهذا هو ما يطالب من الدرس بين يدي الاستاذ
حتى تحصل ملكة التمييز . اما الوصول الى غاية الكمال في
العلم بقدر الامكان فامرء موكول لاجتهاد الطالب بعد مفارقة
الدرس ووقوف ذهن هذا المنقاد في كل شأن عن معرفة
الامور بنفسه من الامور المحسوسة فمن ذلك اني لما جئت
لهذا البلد كنت امرء من طريق قصيرة من محطة سكة
الحديد الى البيت ذهابا وايابا ولكن مصحوبا بالسيد خليل
بو حجاب وقد رايت امس اليوم ان اذهب الى المحطة راجلا
فبعد ان مضيت في طريقي خطوات قيل لي ان هذا ليس هو
الطريق الى المحطة فرجعت الى طريق اخرى وطال علي السير

حتى صعب علي الرجوع الى المنزل لتشتت الطريق على واضطرت
الى سوال بعض المارة عن المحطة فداني عليها واذا بيني وبينها
اطول مما بيني وبين البيت الذي خرجت منه . ثم بعد عودي
الى البيت خرجت ماشيا مرة اخرى بعد نحو ساعة فاهتديت
الى طريق المحطة ولكن وقع لي اشتباه على مقربة منها . ولم
تزل الشبهة الا بسوال مار . اما بعد ذلك فاني لا اضل في هذه
الطريق ابدا . فالعصمة من الضلال انما تأتي في الحقيقة من
عمل العقل وحده مع الاستعانة بما ارشد اليه المرشدون
الراشدون

(الغاية من علم التوحيد)

ومن العلم ما يكون العلم والعمل به واحد كعلم الكلام فان
المقصد منه انما هو تحصيل اليقين بمسائله كثبوت الوجود لله
تعالى وصفاته الكمالية التي ورد النص باثباتها له ودفع شبه
الملحدن الذين ينكرون ثبوت شيء منها ومثل ذلك للرسول
رضوان الله عليهم اجمعين . فهذا العلم ان جرينا في تعلمه على
التقليد في الدليل كالتقليد في النتيجة واكتفينا بفهم ما جاء من
الادلة على السنة من كتبوا فيها اعرضنا عن الغاية من وضعه
لان اليقين لا يحصل بقراءة الادلة وخرنها في الاذهان وانما
يحصل بالاستدلال الصحيح وادراك العقل لوجه الدلالة من
نفسه بدون تقليد وانما يعد النظر في دليل المستدل السابق معيننا

ومهيئاً للعقل الى تصحيح النظر . فالطريقة التي يجري عليها
اغلب المعلمين ليست من غرض علم الكلام في شيء . ومن
الناس من اذا سألته في امر يتعاق بعقيدة من العقائد فجاك
بقوله . لا تقل ذلك فتكفر او تزل او ما اشبه ذلك وهو
سلاح يتخذ المرتابون في عقائدهم ترساً يدفعون به ما يخشون
من الشبه التي تزل عقائدهم ولكن هذا الدفاع يدل على
ازتياب في عقيدته قبل الدفاع فان صاحب اليقين يرتاح الى
كل ما يسمع فان وجد عند مخاطبه شبهة امكنه ان يزيلها من
نفسه . وتلك الطريقة من طرق الدفاع عن العقائد هي التي
اغلقت دون المسلمين ابواب العلم فانه كلما لاح نور الاهي في
يقين الطالب يرميه الى طلب الحق وجد من هذه الكلمات
كلاعتزال والفلسفة ما يحمد ذلك النور فيه . ومن سوء
الاستعمال في تعليم هذا العلم ان يعلم الطالب متن السنوسية مثلاً
وهو لم يحصل شيئاً من مبادئ العلوم . فيقال ان الحكم العقلي
ينقسم الى ثلاثة اقسام الواجب والمستحيل والجائز ثم يقرأ له
هذه الاقسام بالتعاريف الاصطلاحية وهو على جهل تام بما
يعده لفهم معنى الحكم فضلاً عن اقسامه فيضطر الطالب
الى حفظ هذه الالفاظ بدون ان يحصل من معناها الاغلى
خيالات لا تنطبق على حقيقة

وقد قال المتقدمون انه لا ينبغي ان ينظر في علوم الكلام

الا بعد تحصيل مقدماتها والاستعداد لفهم طرق الاستدلال
حتى لا يضل الطالب بالنظر فيها وهو على جهل من وسائل
فهمها فاللازم الاخذ باحد امرين اما ان الناس يستدلون بالا كوان
على مكوناتها وبالاثار على الموتر فيها لينالوا بذلك اليقين في ما
يعتقدون كل على حسب استعداده . فالعامي مثلا يستدل
بما بين يديه من نبات وحيوان على حسب ما يظهر له في نظامها
والسيد علي الرضا يكتب كتابا في التشریح يقول في آخره انه
عرف بذلك وجود الله وانه المنفرد بالتصرف في هذا الكون .
واما الذي يعلم علم الكلام على طريقة تكفل الانتفاع به في
الوصول الى اليقين الذي لا يقبل التزلزل والايمان الذي يلا
القلب خشية من الله وخضوعا له اما ان يطلب هذا العلم
بمجرد قراءة كتبه ومعرفة ما دلت عليه عبارتها فقط فهو في
الحقيقة مما يصد عن اليقين ويبعد عنه خصوصا اذا خاف الناظر
من ان يقال انه فيلسوف او معتزلي او ما اشبه ذلك فانه لا
يقين مع التخرج من النظر وانما يكون اليقين باطلاق النظر
في الاكوان طولها وعرضها حتى يصل الى الغاية التي يطلبها
بدون تقييد كما هدانا الله الى ذلك في كتابه فانه يخاطب الفكر
والعقل والعلم بدون قيد ولا حد ووقفنا عند حد فهم العبارة
مضر بنا في العلم وسناف لما كتبه اسلافنا وما تركوه لنا من
جواهر المعقولات في الكتب النفيسة المستودعة بخزائنها التي

اصبحت يومنا اكلة للسوس وفراشا الآتية لا نمد ايدينا
اليها لنستلبه منها او لنزعج السوس عن اكلها واتلافها .
انفس ما فيها فر من بين ايدينا ورصعت به خزائن اعم اخرى
اصبحت الان تنمت باعم النور ولو طلبناها لم نجدها . وربما
اعندر الطالب انه لا مناص له عن صرف الزمان في قراءة
المطول ونحوه مثلا او لا لان غيره مثل كتاب الصنائع او غيره
ليس مما قرره القارئ او لا . الاستاذ لا يريد ان يسهل ان
يكون عالما مشهورا ولن يكون كذلك في نظر العامة الا
اذا قرا المطول بحواشيه في المدة المعلومه او في اطول منها
ولكن هذا لا يصح عندنا ونست اريد بنفي المذر ان احمل
الطالب على عصيان استاذه او حرمانه مما يطلب من الشهرة بين
قومه بل اريد ان انبه الى سلوك طريق وسط وهو ان يجمع بين
الحضور في دروس الاستاذ وتحصيل حقيقة العلم في طالع درس
الاستاذ ويضم الى ذلك مطالعة شيء من الكلام البليغ
وتحرير ما ينسج على منواله في تحصيل الملكة المطلوبة
ولقد عرض لي ما يعرض للطلبة اليوم وكنت اتنى ان
ابلع من الشهرة ما بلغه غيري فحضرت دروس تلك الكتب
مع اشتغالي باستكمال ما اردت من العلم . على ان طلب الشهرة
في العلم انما هو عند شعور النفس بشيء من الغرور . فاذا ادركت
حقيقة العلم . هبت شهوة الشهرة وادركت انها بمنزلة من الجهل

تقضي عليها بتحصيل العلم للعلم والعمل به في سائر الاوقات وعلى
اي الحالات

للطالب او الاستاذ ان يستعين من هذه البدع المخالفة
ويقول انها بدع مخالفة لسنة السلف الصالح التي لا يزيد ان
تغيرها لانها لو لم تكن مفيدة ما سنها اسلافنا . فمالنا الا
اتباعها وعليه يكون كلامنا بمنزلة المغني على مسمع جماعة من
الاعاجم في كلام مجنون وليلى الى طلوع الفجر فقليل له بالله عليك
غن لنا عن ليلي ومجنون . فلما قيل لهم في ذلك قالوا لماذا لم
تعلمنا من قبل حتى نفرح . قلنا ان الطريقة التي نشير بها
هي طريقة اسلافنا الاقدمين فالعود اليها احياء لسننهم وعمل
بآثارهم فلما كان اسلافنا جارين في تعليمهم على تلك الطريقة القوية
كان نور العلم يضيئ لهم سبلهم الى سمادتهم في معاشهم ومآلهم
وكانت الامة التي تعد نفسها اليوم قابضة على : شكاة النور تستضيئ
بنورهم

يقول القائلون ان طلب تغيير الطرق اعتناء بالجديد
وولوع بالبدع او نزوع لها وليس الامر كذلك فان الجديد
والبدعة هو ما نراه عليه وقد ظهر اثره وعم ضرره فالقديم
الحقيقي هو ما ندعو اليه ولا نجاح لنا الا بالتمويل عليه
التوكل

بقيت مسألة نبهنا عليها في اول الامر وهي ان الواحد

منها اذا لاح بذهنه نور الاهي يرشده الى طريق العلم ياتيه
 . مارض يقول له ان الحالة الراهنة هي ما قدر الله . لا حيلة
 لنا فيها . فالمرء متوكل على الله مسير بحسب القدرة فعليها
 بتسليم امورنا اليه تعالى والتوكل عليه وبذلك ينطفي النور الذي
 لاح بذهنه وبعد ان خطر بباله داعي العمل ينزع للبطالة
 والكسل والعجب انهم يظنون هذه الوسوس من العقائد
 الدينية ولكن الدين يتبرا منها وما للدين عدوا ضر من امثال
 هذه الاعتقادات

نرى النبي صلى الله عليه وسلم وهو امامنا وقدوتنا لما بعث
 في دياجير الجهل وتحكم سلطان الشرور وقبايح لمادات في
 الامم التي ارسل لها لم يقل ان ذلك ما اراده الله ولم يسلم امره
 للقدر وكذلك الصحابة رضي الله عنهم اصابهم من الالام ما
 اصابهم مع انهم اشد الناس توكلا على الله واكملهم تمسكا بالقدر في
 طريق الحق فهم ان كانوا قدوتنا كما هو الحق فلماذا لا تقتدي
 بسيرتهم ونبيذ وسوس المبطلين وهذي العمي والمغفلين والله
 تعالى ورسوله قد دعانا الى طريق الحق والتواصي بالحق وحملنا
 عليه « ان الانسان لفي خسر الا الذين ءامنوا وعملوا الصالحات
 وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فالذين فقدوا التواصي
 بالحق والصبر هم بلا شك خاسرون

الاحتجاج على ترك العمل بالقدر من عقائد الملحدين . وقد

جاء الكتاب الكريم بتشنيع اعتقادهم والذمي عليهم فيه . وقد
 حكى لنا ما كانوا يقولون من نحو لو شاء الله ما اشركنا ولا اباءنا
 ولا حر منا من شيء فلا يسوغ لاحد منا وهو يدعى انه مومن
 بالقرءان ان يحتج بما كان يحتج به المشركون . من يزعم انه
 متوكل من المتظاهرين بالصلاح فهو كاذب زنديق لانه انما
 يدعى التوكل اذا طلب بامر فيه مشقة عليه يجتهد في نفسه
 عجزا عنه او يسئل عن السعى فيه فهو يرضى بما يجده فاذا
 رجع اولئك المتبتلون الى منافعهم الخاصة لم تجد للتوكل في
 نفوسهم اثرا فهم يغشون ويخادعون ويحتالون لتحصيل ما به
 يعيشون او ما به على الناس يظهرون واذ ذاك لا يرجعون
 الى التوكل فهم كذبة لا يصح الاقتداء بهم . وكفانا قدوة
 وخير اسوة سيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم فانه كان من
 شدة توكله واعتصامه بالاستعانة بالله جل شأنه لا يفتر عن
 العمل في الدعوة الى الحق وحمل الناس عليه . يحتج بعض
 الناس على كسائهم بقوله صلى الله عليه وسلم « لو توكلتم على
 الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصا وتروح
 بطانا » ويفسرون ذلك باننا لو القينا اثقالنا على الله وتركنا
 اسباب عيشنا في كسبنا وما كلنا ومطبخنا ومرقدنا لرزقنا
 كما ترزق الطير ولكن هذا الفهم خطأ بعيد عن

المعنى المراد ولولا ذلك لقال صلى الله عليه وسلم لرزقتم كما
 رزق الطير تلبث في اعشاشها وتفتح افواهها فتصبح خماصا
 وتمسى بطانا . يظنون في هذا الحديث حث على ترك العمل
 والبطالة مع انه جاء للحث على العمل . والكلام في معنى حق
 التوكل ظنوه ترك السعي بالمرّة وهو خطأ محض فالمراد من حق
 التوكل ان يعتمد الانسان على الله سبحانه وتعالى مع اتباع سنته
 التي سنّها في الطاب فيحصل البطالب من اسباب مطلوبه ما
 اقامه الله سبيبا ويدقق النظر في ذلك ما شاء حسبما طالبه الله
 تعالى به . ثم بعد ان يستعمل الاسباب ينجي ربه بسره ان قد
 آت بما في استطاعتي على مقدار ما وهبتي وما بقى مما لا اعلم
 فهو في يدك فاغنني بقدرتك ولا تحرمني معونتك ثم يمضي في
 عمله . هذا هو حق التوكل . وقد اشار اليه صلى الله عليه وسلم
 في قوله . تغدو خماصا وتروح بطانا . فانه اراد بذلك ان الطير
 انما تسير في تحصيل معاشها على الالهام الذي اودعه الله فيها .
 الهمها معرفة الاماكن التي فيها اقواتها كما الهمها الى تلك الاماكن
 لتصيب اقواتها منها فهي تعمل بارادتها على ذلك الشعور الذي
 منحه الله اياها . فحق التوكل لا يتم لنا الا بالان يجري في
 اعمالنا على ما يقوم عندنا مقام الالهام عند الطير . والذي
 يقوم عندنا مقام الالهام هو العقل . فلا نكون متوكلين حق
 التوكل حتى نستعمل نفوسنا في الوسائل التي توصلنا الى بلوغ

الغاية من اعمالنا وان نجيد الاستعمال حتى لا يقع لنا ضلال
في طرق الوصول الى المقصود . فالاعتماد على الله بهذه
الطريقة كافل بنجاح الاعمال

الخاتمة

وبهذه الوسائل يسهل علينا التوفيق بين السعي والتوكل
لا سيما في تحصيل العلوم وهي كثيرة واولاها بالتقدم فيما
اعتقد علوم لساننا العربي فان اصلاح لساننا هو الوسيلة
المفردة لاصلاح عقائدنا وجهل المسلمين بلسانهم هو الذي
صدمهم عن فهم ما جاء في كتب دينهم واقوال اسلافهم ففي
اللغة العربية الفصحى من ذخائر العلم وكنوز الادب ما لا يمكن
الوصول اليه الا بتحصيل ملكة اللسان ولا تحصل هذه الملكة
الا بالعناية بتحصيل علومه على الوجه الذي سبق بيانه من
الجمع بين معرفة القواعد من اسهل طرقها بدون التفات الى
عبارات المعبرين وبين العمل بالقول والقلم حتى يملك الطالب
من اللسان ما كان يملكه العربي بسليقته وبدون ذلك لا
نصل الى فهم اسرار شريعتنا بل تسد في وجوهنا طرق
الوصول الى الحقيقة منها

فعلى كل من له غيرة على ملته ان يبذل ما في وسعه لتسهيل
طرق تعلم اللغة وتحصيل الملكة فيها قولاً وكتابة حتى يتكلم
بها غالب اهلها ويكتبوا بها بالطريقة الصحيحة لان في انحطاط

لغتنا انحطاط لنا ولديتنا وعقائدنا واخلقنا وانحطاط ذلك
مفسد لجميع امورنا

اقول قولي هذا ولا اريد به الزام سامعه بقبوله
والا خالفت ما ادعوا اليه من استقلال الفكر وحرية الراي
على اني اظن ان في السامعين من يلتزم به او طلبت
الزامه . ولكنه راي اعرضه على سامعهم فان وجدته السامع
صوابا اخذ به والا فانه لا يخش شيئا سوى احتمال مشقة الحر
في هذا المجلس وهو قدر مشترك بيني وبينه والله يوفقنا الى
اصلاح احوالنا في معاشنا ومعادنا وصلى الله على سيدنا محمد
وآله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين

BnF
MSS